صور من

تاريخ العراق في العصور المظلمة

بقلم

جعفر الخياط

B. Sc. , M. Sc. (كاليفورنية)

الجزء الأول

ساعدت وزارة الاعلام على نشره

الطبعة الأولى

١٩٧١

المقدمة

كان التخريب الذي أصاب بغداد غداة داهمتها جيوش المغول والتتار ، في أواسط القرن الثالث عشر[1] ، قد أنزلها من عليائها وأطفأ نور الخلافة الاسلامية منها الى الأبد . فقد ثل هذا الغزو البربري عروشها . واستباح خزائنها وكنوزها ، وذبح شعراءها وتجارها ، وفرّق طلابها وعلماءها وفقهاءها . فقضى على معالم الحضارة الزاهرة فيها قضاءً مبرماً . فاستحالت بذلك خلال أيام معدودة من كونها قهرمانة الممالك وسيدة البلاد الى مركز حقير ثانوي من مراكز الامبراطورية الايلخانية المترامية الأطراف . وقد خيّم على العراق من بعد هذا ظلامٌ دامس لا تستبين العين في دياجيره الا آثار الجور المبيد . ولا يسترق السمع خلاله الا أنين حضارة سارت بذكرها الركبان ، واحتضار مدنية سرعان ما أسلمت الروح فران عليها صمت الموت الرهيب . فدخلت البلاد كلها في سبات عميق ظلت تغط به طوال قرون عديدة ، حتى بات شأنها نسياً منسياً .

وأصبحت تلك البلاد العامرة ، بعد ان كانت تزدهي بها بلاد الرافدين ، وهاتيك السهول الخصبة الممرعة بعد ان كانت تزخر بالخير وتنبض بالحياة ، يباباً بلقعاً ونهباً بأيدي خليط متوحش من خانات المغول وبيگات التركمان ما يلبث فيها أحدهم حتى يخرجه منها غيره ، وما يستولي عليها فريق منهم حتى

(١) لقد استولى هولاكو على بغداد في سنة ١٢٥٨ (٦٥٦ ﻫ) .

ينازعه فيها فريق آخر . واستمرت على حالتها هذه أجيالاً عديدة تتلاقفها الأيدي وتلعب بها الأطماع ، وبقيت أعواماً طويلة يتعاور على حكمها الايلخانيون والتيموريون والجلائريون . ويتقاتل من أجلها القره قويونلي والآق قويونلي . حتى تطوّرت بها الحال فتُدر لها أن تقع فريسةً بين أيدي دولتين شرقيتين قويتين هما : الدولة الصفوية في أيران ، والدولة العثمانية في تركية .

فقد شهدت السنين الأخيرة من القرن الخامس عشر انبعاث روح قومية جديدة في إيران . تمتزج بالتصوف والعقيدة الشيعية المتطرفة . وظهر الشاه اسماعيل على مسرح الحوادث فكوّن امبراطوريته الصفوية النامية ، وكان من الطبيعي له أن يتجه بأنظاره نحو العراق ومدنه المقدسة ، ويجهز الجيوش للاستيلاء عليه وإلحاقه بامبراطوريته المتسعة . في الوقت الذي كان يعجل فيه بنصرٍ بعد آخر . وفي أواخر سنة ١٥٠٨ سقطت بغداد بين يدي قائده لا لا حسين ، وطويت صفحة أخرى من صفحاتها الحافلة بالتقلبات والأهوال . وعجّل الشاه بالمجيء لزيارة العتبات المقدسة . والاشراف على فتح البلاد العراقية الأخرى . فكان له ما أراد ، وبعد ان ضم الموصل الى امبراطوريته في ١٥١٠ أصبح العراق كله في قبضة يده .

غير أن هذا الانبعاث القومي الديني في ايران ، وفورة التعاظم الصفوي البادىء بالشاه اسماعيل . قد اتفق وقوعهما في وقتٍ كانت الامبراطورية العثمانية آخذةً بالتوسع والتعاظم على عهد السلطان سليم وابنه السلطان القانوني وكان لا بد لهاتين الدولتين المتعاقبتين ، وهما في أوج قوتهما وعنفوان سطوتهما . من أن تتضارب مصالحهما وتصطدم أطماعهما بطريقة أو أخرى . وكان خير ميدان يحصل فيه هذا كله . بالنسبة لتلك الظروف . ميدان الزعامة الدينية والتناحر الطائفي الذي كثيراً ما يكون مقروناً بالتعصب الذميم علاوة على المبالغة والتهويل . وقد كان اسم بغداد ، موئل الخلافة العباسية ومجدها الزائل ، وهي « ترزح تحت كابوس الحكم الصفوي الايراني » يوحي بكل ما في هذا التناحر من دوافع للاحتكاك والتصادم . فحصل هذا بالفعل حينما تناحت الأخبار

المبالغ فيها الى استانبول أن الشاه اسماعيل وصل الى بغداد فعبث بقبور أئمة السنة وذبح جماعةً من علمائهم . ومع ان السلطان سليم لم يكن قد اضطلع بأعباء الخلافة الاسلامية أو ادعى بها وعيّن نفسه لها ، ولم يكن قد بدأ يحمل لقب الخليفة المقدس بعد ، فقد أصبح يدّعي ببطولة القضية السنية في العالم الاسلامي ازاء بطولة القضية الشيعية التي كان يعرف بها الشاه الصفوي في ايران . وعلى هذا الأساس وقع التصادم بين الدولتين المسلمتين ، بينما كان يجب ان يتم التفاهم بينهما فيعملان معاً على ما يضمن خير الاسلام وإعلاء شأنه بعد ان صحا العالم الاسلامي في عهدهما من هول الكارثة التي أصابته على أيدي المغول الوثنيين .

وبهذا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من النزاع العنيف والحروب المتواصلة ما بين سلاطين آل عثمان من جهة وشاهات الأسر الحاكمة المتعاقبة على دست الحكم في ايران من جهة أخرى ، واستقام هذا النزاع ردحاً طويلاً من الزمن وظل يكتسب أشكالاً والواناً مختلفة عبر السنين والأجيال حتى قُدر للدولة العثمانية ان تزول من الوجود في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد كانت بغداد ، وما يدور في فلكها من حواضر العراق وبلدانه الأخرى ، من أهم المسارح التي ظل هذا النزاع المزمن يحتدم فيها طوال قرون أربعة . ومع ان العراق وسكانه لم يكن لهم في هذا النزاع سوى المصائب والأهوال ، ولم يكن لهم فيه لا ناقة ولا جمل ، لأن الدولتين المتناحرتين كانتا غريبتين عنهم محتلتين لبلادهم ومستأثرين بخيراتها وكنوزها ، فقد وجدوا أنفسهم متورطين فيه بالتدريج ومعنيين بكل وجه من أوجهه المتطاولة . فقد كان من سوء حظ العراق وسكانه ان يتخذ هذا النزاع على المصالح المتضاربة بين الدولتين شكلاً طائفياً مشحوناً بالكثير من العاطفة والحساسية المذهبية ، وان ينقسم سكان هذه البلاد في معتقداتهم الى فريقين كبيرين أحدهما سني والآخر شيعي . فيكون من المنتظر أن ينبرى كل فريق منهما الى مشايعة إحدى الدولتين وتحمل أوزار تلك المشايعة .

وقد كانت تأثيرات هذا التناحر وعقابيله تظهر بأجلى مظاهرها في أحوال سكان العراق ومعاملة الحكومات القائمة لهم حينما يشتد الخصام بين حين وحين

ويفضي الى الاشتباك المسلح على الأخص . فقد حصل هذا حينما استطاع السلطان سليمان القانوني ان ينتزع بغداد من أيدي الصفويين في سنة ١٥٣٤ . وحينما استردها لايران الشاه عباس الصفوي سنة ١٦٢٣ على أثر خيانة بكر الصوباشي لاسياده العثمانيين . وعندما استطاع السلطان مراد الرابع ان يحتلها بنفسه من جديد سنة ١٦٣٨ بعد عدد من المحاولات الفاشلة التي بذلها القادة الأتراك خلال الاحتلال الايراني الثاني لها . وحصل هذا كذلك في حصارات نادرشاه الكبيرة لبغداد في أيام واليها أحمد باشا . وفي حصاره للموصل على عهد الحاج حسين باشا الجليلي واستيلائه على كركوك قبل ذلك . وفي أيام الوالي المملوك عمر باشا حين أدى سوء الحكم الذي بدر منه الى استيلاء كريم خان الزند على البصرة . وعند احتلال الايرانيين للبصرة هذا بقوات كريم خان الزند ، وفي أثناء التهديدات المستمرة والتحرشات المتواصلة التي كان يديرها الشاهزادة محمد علي مرزا من كرمنشاه على عهد الوالي داود باشا .

وقد جعل مرور الزمن من استدامة هذا النزاع المحتدم بين العثمانيين والايرانيين في العراق ، والاختلاف الحاصل بين أهالي العراق وطبقات سكانه بسبب ذلك . تقليداً قائماً ظل يتخذ أشكالاً وألواناً مختلفة عبر القرون والأجيال حتى يومنا هذا برغم زوال الدولتين وتبدل الظروف والأحوال . والحقيقة ان التناحر الطائفي الذي استطال احتدامه بين الدولتين بسبب المصالح الخاصة بهما قد جعل من الاختلاف البسيط في العقائد المذهبية بين السنة والشيعة في العراق شيئاً متأصلاً مبالغاً فيه . كان وما يزال يصعب اجتثاثه اجتثاثاً كاملاً من النفوس . وقد أثرت العملية التاريخية الناجمة عن سير تلك الحروب . ووقوع الحوادث بشتى أنواعها واشكالها عبر السنين والاعوام ، تأثيراً لا يمحى في وضع العراق الحالي . وتكوينه بالشكل الذي نراه فيه اليوم . فقد أثرت على حدوده وموارده الطبيعية ، وتكوين طبقات السكان فيه ، وأثرت على تقاليده ولغته الدارجة ومأثوراته الشعبية بدرجة لا يستهان بها . ولذلك يمكن ان يقال ان عراق اليوم هو حصيلة منطقية لتلك الحلقات المتتالية من الحوادث المروعه والمآسي المتكررة . التي ظلت تتفاعل فيما بينها على مر الزمن لتكوّن العراق الحديث .

على ان التأثيرات التركية العثمانية في تكوين العراق الحديث تزداد نسبتها ازدياداً غير يسير ، اذا ما قورنت بالتأثيرات الايرانية ؛ لأن العثمانيين استردوا بغداد من الايرانيين على يدي السلطان مراد الرابع في ١٦٣٨ واحتفظوا بالعراق لهم منذ ذلك الحين الى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في ١٩١٧ . لكن النزاع والتناحر بين الدولتين لم تفتر حدتهما الا خلال فترات على طول هذه المدة . وقد بلغا أوجهما في حصارات نادرشاه الثلاثة لبغداد ، وحصاره للموصل من دون طائل ؛ وخلال احتلال كريم خان الزند للبصرة في ربيع ١٧٧٦ . وقد استطاع العثمانيون خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ان يؤثروا تأثيرات غير يسيرة على وضع العراق الحديث وطبعه بالطابع الذي لا نزال نعاني منه في كثير من الأمور .

ويقسم بعض المؤرخين فترة الاحتلال العثماني الطويلة للعراق الى عهود خمسة يكاد يعرف كل عهد منها بسمات بارزة خاصة به . وتبدأ هذه الفترة بالعهد الأول الممتد من فتح السلطان سليمان القانوني لبغداد في ١٥٣٤ الى نجاح السلطان مراد الرابع في انتزاعها من أيدي الايرانيين خلال احتلالهم الثاني لها في ١٦٣٨ . ويتميز هذا العهد باشتداد التناحر بين الصفويين والعثمانيين على امتلاك العراق والاستئثار بحكم بغداد عاصمته . ومن أبرز ما حصل خلال هذا العهد احتلال الصفويين للعراق في سنة ١٦٢٣ واحتفاظهم به الى سنة ١٦٣٨ . ويبدأ العهد العثماني الثاني بفتح السلطان مراد الرابع لبغداد وينتهي ببداية حكم المماليك فيه (١٦٣٨ — ١٧٤٩) . ويعرف بفتور حدة النزاع الايراني العثماني على العراق في بدايته ، وبسيطرة الجند الانكشاري على حكوماته ولعبهم بمقدراته ، من دون ان يتسنى للحكومة فيه ان تسيطر سيطرة معقولة على شؤونه وأحواله . كما يعرف بظهور أسرة حسن باشا الحاكمة فيه وتمهيدها لحكم المماليك من بعدها ، وبهجمات نادر شاه المتتالية على البلاد العراقية في عهد احمد باشا بن حسن باشا . وبمحاصرته لبغداد حصاراً غير مجد ثلاث مرات متعاقبة ، فضلاً عن محاصرته الفاشلة للموصل . اما العهد الثالث فيستغرق فترة استيلاء المماليك على الحكم في العراق ما بين سنتي ١٧٤٩ و ١٨٣١ . وقد

استطاع الپاشوات المماليك خلال مدة حكمهم هذه ان يوقفوا تصرفات الجند الانكشاري وعربدته في بغداد وغيرها من حاضرات العراق عند حدها . وان يستأثروا بالحكم لأنفسهم فيبعدوا عنه العناصر التركية والمحلية الأخرى في الأعم الأغلب . كما استطاعوا ان يستقلوا بالعراق عن سيطرة الباب العالي في استانبول بكثير من شؤونه وأحواله . ويتحدى بعضهم أوامر السلطان فيغتال حتى موفديه ورجاله . لكن هذا العهد عرف كذلك بتناحر أبناء الأسرة البابانية في البقاع الكردية المتاخمة لايران على الحكم وتذبذبهم في الولاء ما بين بغداد من جهة والعواصم الايرانية من جهة أخرى . وكان من الطبيعي أن يفضي هذا الأمر الى اشتداد النزاع بين ايران والعراق . ومن ورائه الدولة العثمانية . وتوريط الجانبين في مشاكل واشتباكات كان كل من الفريقين في غنىً عنها . كما عرف بتغلغل النفوذ الأجنبي . ولا سيما الانكليزي منه . في العراق ودخول شيء من التجديد فيـــه في أيام داود باشا عـــلى الأخص . ويبدأ العهد الرابع بانهيار حكم المماليك سنة ١٨٣١ ثم ينتهي بانتهاء حكم الوالي المصلح مدحت باشا فيه بتاريخ ١٨٧٢ . ويسمى هذا العهد بعهد الحكم المباشر . اي الحكم الذي كان يرجع في شؤونه الى الباب العالي في الاستانة مباشرةً . ومع ان هذا العهد قد عرف بالكثير من محاولات التجديد والاصلاح المبذولة خلاله . ولا سيما في نهايته على عهد الوالي الأشهر مدحت باشا . وبتعرف العراق على وسائل النقل والمواصلات الحديثة . فقد استنجلت فيه جميع شرور الحكم القامي البعيد عن الرقابة المباشرة الخالي من رغبة الحكام في إسعاد الرعية . ورسم الخطط الكفيلة برقي البلاد ورفاهية سكانها . كما عرف بتعسف الولاة الحاكمين وتكالبهم في إشباع جشعهم المسنون وابتزاز الأموال بجميع الطرق والوسائل المسكنة . وباستفحال أمر « الهايته » و « الضابطيه » فيه . اما العهد العثماني الأخير فيبدأ بسنة ١٨٧٢ وينتهي باحتلال الانكليز لبغداد في ١٩١٧ في أواخر الحرب العالمية الأولى . وأهم ما يعرف به ظهور الحركة الدستورية . واعلان الدستور . واسهام الدولة العثمانية في التكتلات الدولية التي أفضت الى اشتراكها في الحرب العامة الى جانب ألمانية وانهيار الامبراطورية العثمانية على اثر ذلك .

وتبرز في تاريخ العراق خلال هذه الحقبة الطويلة من الحكم العثماني المتواصل صفات وخصائص عامة كانت تفعل فعلها في تكوين العراق وما فيه من سكان ومجتمع .

فيلاحظ المتتبع ان بلادما بين النهرين جميعها من الخليج العربي الى ماردين كانت تبين فيها خلال عهود الحكم العثماني كلها دلائل الاهمال والتسيب بأجلى مظاهرهما . ويخيّم عليها خمول قاتل وركود يقارب ركود الأموات . وكانت الحكومات تتعاقب عليها واحدة بعد أخرى ويذهب الباشوات والولاة ويأتي غيرهم بين حين وحين من دون ان تكون للأغلبية الساحقة من أهلها رأي فيهم او علم بما يحدث . وكان العراق بلاداً مضيعة وديار مسيّبة كأن أهلها لا وجود لهم . أو كأنهم قطعان من السائمة . وكان الوالي الذي يعين لحكمها يأتي اليها وهو يشعر في الغالب انه جاء منفياً الى بلاد نائية . لا رقيب فيها عليه . فيغتنم الفرصة لجمع المال بشتى الطرق ويستغل كل ما في سلطته من قوة ونفوذ للاستفادة والاثراء . وسرعان ما كان يكتشف أمره أحياناً بعد أن تزكم رائحة فضائحه الأنوف . فينقل أو يُعدم أو يلطّف ويكافأ في بعض الأحيان . ولم يخل الأمر من ولاة قلائل عفيفين مستقيمين حسني النية . كانوا يأتون الى هذه البلاد ويشمرون عن ساعد العمل . لكنهم سرعان ما كانوا يجدون أنفسهم خائضين في خضم متلاطم من المشاكل والصعوبات التي تنوء بها كواهل الرجال . فمن عشائر تثور . وجند انكشاري يعربد . وامكانيات محدودة . وكوارث طبيعية مخيفة . وطرق مقطوعة . الى منافس يطمح بالحكم . وموظفين منغمرين في حمأة الفساد . وحدود مهددة . وما الى ذلك . ولهذا لم يكن يتيسر الوقت ولا الفرصة لكلا النوعين من الولاة لأن ينظروا في شؤون الرعية . او يفكرون في أمور الاصلاح . وعمران البلاد . ولم يكن المسؤولون في البا ب العالي بأحسن حال من هؤلاء الولاة في هذا الشأن . فلم يكونوا في وضع يسمح لهم هم أيضاً بان يعملوا على إعمار ممتلكاتهم . ووضع الخطط اللازمة لاصلاح شأنها . وتحسين أحوال الرعية فيها . وحث ولاتهم على الاضطلاع بالاعمال المفيدة واستثمار مرافق البلاد . وانما كان همهم في الغالب ينصرف الى مطالبتهم بتقديم

الأتاوى والأموال ومعاقبة المقصرين منهم في هذا الشأن . وبذلك لم تكن الولايات العراقية تخرج عن كونها « بقرات حلوب » تدر على الخزانة الهمايونية بخيراتها ، وتملأ جيوب الولاة وموظفي دواوينهم ، وبعض المسؤولين في الباب العالي ، بالثروة والمال .

ولم يكن من المستغرب في ظل هذا الحكم المسيّب ، وبوجود هذه النوعية من الحاكمين ، ان يعاني العراق وسكانه أقصى ما يمكن ان تعانيه أيـة بلاد وسكانها من شرور الكوارث الطبيعية ، والحصارات المخيفة ، والحروب المدمرة ، من دون ان يكون هناك من يخفف الويلات عن الناس او يحول دون وقوع الأضرار بمقياس واسع . فقد كانت الطواعين وغيرها من الأمراض الوبائية تحصد النفوس حصداً ، وتقضي على السكان بالآلاف المؤلفة ، وكانت الفيضانات العاتية تهدم مدناً وقرى بأسرها ، وتقضي على الزرع والضرع في مسافات شاسعة من البلاد . فتنتشر الخراب والدمار بين حينٍ وحين . وكانت المجاعات تكشر عن أنيابها وتفتك فتكاً ذريعاً بالناس فتنسيهم انسانيتهم ، وتجعلهم يبيعون الولد والنشب ، او يتساهلون بأعز ما عندهم ، لسد الرمق والحصول على بلغة من العيش . وكانت الحصارات والحروب تجر على سكان المدن العراقية وبلدانها المصائب والويلات من دون ان يكونوا هم طرفاً فيها أو تكون لهم مصلحة بها ، وتنتهي في أحيانٍ كثيرة بالمجازر الرهيبة والتدمير المروع . وكثيراً ما كانت ارتال الجراد وأرجاله تهاجم المزارع والحقول وتعيث فساداً في الخضر والبساتين ، فتخلف وراءها الخراب والدمار ، وتنشر المجاعة والقحط .

وكان من خصائص التاريخ العراقي على عهد الاتراك العثمانيين كذلك طغيان الصبغة العشائرية فيه ، وتأثره بثوراتها وأحوالها الى حدٍ بعيد . فقد كان العراق منذ عهد سحيق في القدم ملجأ للقبائل العربية المندفعة اليه بفعل الأحوال الجوية في شبه الجزيرة العربية ، والعوامل المناخية المتبدلة فيها . وقد ظلت الموجات المتدفقة من هذه القبائل تدفع إحداها الأخرى عبر القرون والأجيال الى سهول ما بين النهرين وهضابها حتى تكونت منها أغلبية كبيرة من السكان .

وبقيت العشائر الكردية قابعة في أوديتها وجبالها الوعرة. ومنعزلة عن العالم الخارجي بحيث ظلت محافظة على تقاليدها وأحوالها القبلية على كر السنين وتعاقب الدهور . وحينما قُدر للأتراك ان يحتلوا هذه البلاد . ويتولون مقاليد الأمور فيها . بقي تدفق العشائر العربية على العراق يسير في مجراه الطبيعي . وظلت القبائل الكردية محافظة على وضعها القبلي المعروف . ولذلك وجد المحتلون الجدد أن ما يزيد على سبعين بالمئة من سكان هذه البلاد كانوا في وضع عشائري واضح . وأن نسبةً غير قليلة من هذه العشائر كانت تمر في مراحل مختلفة من مراحل التوطن والاستقرار وتنصرف الى التفكير في فلاحة الأرض واستخراج معيشتها منها .

وبدلاً من ان يحاول الولاة المتعاقبون مساعدة هذه الطائفة الكبيرة من السكان المتخلفين على التوطن. ويضعون الخطط الناجحة لربطهم بالأرض وجعلهم مواطنين صالحين وأدوات منتجة للبلاد . كانوا يحاولون فرض نظم غريبة عليهم . بعيدة عن فهمهم ومصلحتهم . وكان جل ما يفكر به اولئك الحاكمون جباية الضرائب المرهقة منهم . ومشاركتهم في وسائل عيشتهم . من دون ان يقدموا لهم خدمةً خاصة في مقابلها أو ينهضون بمشروع يستفيدون منه . وقد كانوا يعمدون الى فرض كل ذلك بمنتهى ما عند الحكومة من قوة وقسوة . وظلوا يفعلون ذلك الى أواخر أيام الحكم العثماني في العراق . من دون ان يشذ عن هذه الوسيلة التقليدية حتى الولاة الصالحون منهم من مثل مدحت باشا وغيره .

ولهذا يرى المستقصي في تاريخ العراق خلال عهود الحكم العثماني المختلفة ان تأديب القبائل . في الجنوب وفي الشمال . وسوق القطعات العسكرية على هذه القبيلة أو تلك . كان يُعد قسماً مهماً من واجبات كل والٍ من الولاة المعينين في هذه البلاد . وكانت هذه الحالة كثيراً ما تستنزف الأموال والجهود وتسبب الكثير من الفوضوية والارتباك في الحكم . فضلاً عما كانت تنطوي عليه من ظلم وتعسف . وقد عرف عن بعض الباشوات أنهم كانوا يتخذون هذه الحملات العشائرية المتواصلة وسيلة للاثراء وجمع المال . وذريعةً سياسية

يتذرعون بها لاجبار المسؤولين في الباب العالي على إبقائهم في مناصبهم . ذلك لان هذه الحملات كثيراً ما كان يصحبها نهب القبيلة العاصية نهباً منتظماً تصادر فيه الآلاف المؤلفة من الحيوانات العائدة لها ، وتساق للبيع في المدن والبلدان ، كما كانت تقترن بالكثير من التدمير والتخريب . وكان يعرف مثل هذا حتى عن أبرز الولاة الحاكمين وأقدرهم في الحكم ، مثل أحمد باشا مؤسس أسرة المماليك وخصيم نادر شاه ، ومثل سليمان باشا أبي ليلة وسليمان الكبير وحتى داود باشا ، فضلاً عن الولاة الذين جاؤوا من بعد هؤلاء من مثل علي رضا ومحمد نجيب والكوز لكلي وغيرهم .

ولا ريب ان العشائر العربية والكردية كانت تعتبر قوة يحسب لها الحساب ، وكثيراً ما كانت تستخدمها الحكومة نفسها في حروبها وغزواتها وتستفيد منها في تنفيذ مآربها . وكانت تعمد من أجل هذا الى ضرب العشائر العربية بالعشائر الكردية ، أو ضرب الكردية بالعربية ، كما كانت تحرك فريقاً من القبيلة ضد فريقاً آخر منها على قاعدة « فرق تسد » المخطرة ، وتدفع الأخ ضد أخيه ، او الابن ضد أبيه أو عمه من الرؤساء. على ان الالتجاء الى مثل هذه التدابير البعيدة عن روحية الحكم الصالح المجافية لأخلاقية الاصلاح وخير البلاد، كثيراً ما كان يؤدي الى إنقاذ الحكومة من ورطات مهلكة ويبقي على ماء وجهها ، فيجعلها مدينة لمن يمد لها يد العون والمساعدة ومضطرة لمسامحته والسكوت عن سوء تصرفه من الشيوخ والرؤساء . وقد استفاد من مثل هذه التدابير حتى مدحت باشا ، المسمى بالمصلح ، حينما استنجد بعشائر المنتفك وشمر وغيرها لاخراجه من الورطة التي ورطه بها ابن اخيه المتصرف القتيل مع قبائل عنفج وما جاورها . وقد كان الطموحون من الرؤساء والشيوخ يستغلون مثل هذا الوضع فيرخون لأطماعهم العنان ويستفيدون الاستفادة كلها على حساب المصلحة العامة ، ولا سيما بعد ان يساعدوا إحدى الشخصيات في الولاية ويقاتلون دونه فينجح مسعاهم ويرفعونه الى دست الحكم ، كما حصل في قضية عبد الرحمن بابان مع الباشا المملوك عبد الله التوتونجي ، وحمود الثامر السعدون مع سعيد باشا بن سليمان الكبير ، ومحمود بابان مع داود باشا .

وقد أدى تمادي حكومات بغداد يومذاك في الاستعانة بالقوات العشائرية الى أن يصبح هذا أشبه بالتقليد الثابت لديها بحيث صارت بعض القبائل والفئات العشائرية ، مثل قبائل العُبيد والعُتيل ، أشبه بالقوات الأجيرة عندها . ومن أجل هذا أنزل قسم من هؤلاء في بعض جهات بغداد لتكون على أهبة الاستعداد للعمل السريع[1] .

ويلاحظ في تاريخ العراق على عهد العثمانيين ايضاً انخطاط نوعية الولاة المعينين لتولي الحكم في ولاياته بوجه عام . وضعف مستواهم الاداري والثقافي فضلاً عن ضعف المستوى الخلقي . فقد كان يؤتى بهم من مختلف الجهات والفئات . وكانت وظيفة الوالي تكاد تكون من الوظائف الشرفية التي ينعم بها السلطان على من يريد بصرف النظر عن المؤهلات والكفاءة . ولهذا كثيراً ما كان يؤتى اليها بالأغا الانكشاري الذي لا علم له بشؤون الحكم ولا خبرة . او بالموظف العادي في القصور الهمايونية . أو رجل المابين الذي يراد تلطيفه لأنه كان يقوم بتقديم خدمات خاصة للسلطان أو غيره . او بالمغضوب عليه المراد نفيه وإبعاده الى اماكن نائية . او بمن يتفوق على غيره بالمزاد فيتعهد بتقديم عدد أكبر من الأكياس في كل سنة الى الخزانة الملكية ، او بمن يكون ملتزماً من هذه الجهة او تلك . وليس من المستغرب والحالة هذه ان نجد بين الولاة الذين تولوا الحكم في العراق : الأمي الجاهل ، أو العاجز الفاشل ، أو الأفاق المغامر ، أو الخرافي المتزمت ، او السكير المعربد ، او العصبي المتهور ، أو الشاب الغر الذي لم تهذبه الخبرة والمران ، او العليل الذي لا تساعده حالته الصحية على العمل . وسرعان ما كان يثبت فشل الكثيرين من هؤلاء ، ويظهر سوء تصرفهم ، فينقلون أو يقتلون او يسجنون . ولذلك كان قليل من الباشوات الولاة من يعمر طويلاً في وظيفته ، أو يستقيم فيها وقتاً يستطيع ان يعمل جاداً

(١) لقد سمح في عهد المماليك الأواخر ، وفي عهد علي رضا باشا بعدهم ، لعكَيل بالنزول في جانب الكرخ والتوطن فيه ، وكان قسم منهم يلتزم ايصال القوافل التجارية وغيرها ذهاباً وإياباً بين الشام وبغداد . ولذلك سمي الكرخ باسم « صوب عكيل » أيضاً . كما نزل قسم غير يسير من العبيد في جهات الأعظمية .

فيه على تمشية شؤون البلاد وتصريف أمور العباد على الوجه المطلوب .

ولا ريب ان هذا من شأنه ان يزعزع نفوذ السلطة الحاكمة . ويقطع عليها استمراريتها في الحكم . واستقرارها في العمل المنتج . كما يشجع الموظفين على التصرف السيء والعمل الكيفي المتحرر من الرقابة الدائمة . وكان من أهم ما يفضي اليه مثل هذا الوضع المتقلقل طمع القادة الانكشاريين . ورجال القوات المسلحة المرابطة في قلعة بغداد عادةً . في اغتصاب الحكم والتدخل في الشؤون الادارية التي لا علاقة لهم بها . ويلاحظ هذا على الأخص في عهود الحكم العثماني الأولى . يوم كانت القوات الانكشارية تنتقض على هذا الوالي أو ذاك لأتفه الأسباب فتلجأ الى الاستحكام في القلعة وتشرع في تسليط نيران مدافعها على الوالي وموظفيه في السراي . ولا تكف عن ذلك الا بعد ان تُسترضى بالمال . او بعزل الوالي بعد فراره . أو بتسليم بعض الشخصيات اليها لقتلها . او باجبارها على الاذعان للسلطة الحقيقية في البلد بالقوة . وكثيراً ما كان يفضي مثل هذا الخصام والعصيان الى اشتباك الطرفين في نزاع مرير تنقسم فيه حتى محلات بغداد وأطرافها على نفسها . وينحاز قسم منها الى الانكشاريين والقسم الآخر الى الوالي ؛ وتستحيل فيه فسحة « الميدان » المعروفة والمنطقة الكائنة بين القلعة والسراي الى ساحة حرب مدة من الزمن . وقد استمر الانكشاريون على وضعهم المزعج هذا حتى تولى الحكم في سراي بغداد أحمد باشا بن حسن باشا (الايوني) فاستطاع بقوته وبطشه أن يكبح جماحهم . ويقضي على الكثيرين منهم خنقاً وشنقاً وتقتيلاً . ثم جاء سليمان باشا الكبير (المملوك) بعد مدة فأوقفهم عند حدهم كذلك وأخرج حاميتهم من القلعة فخصص لهم ثكنة خاصة في منطقة الشورجة .

على ان الولاة الذين حكموا العراق في عهود الحكم العثماني لم يعدم بينهم وجود أناس أكفاء نسبياً . فكتب لهم النجاح في مهمتهم والبقاء في الحكم مدة طويلة من الزمن برغم العيوب التي كانوا يتصفون بها على كل حال . وأخص من يمكن ان نذكره هنا من هؤلاء حسن باشا ، وابنه أحمد باشا ، اللذين عمرا طويلاً في حكم العراق واستطاعا توجيه التاريخ فيه والتأثير على سير الأمور

في ربوعه ردحاً طويلاً من الزمن . فقد كان حسن باشا من رجال القصر الهمايوني وموظفيه ، وحينما عُين لتولي الحكم في بغداد عمل على تنظيم ديوانه ومسكنه على النمط الذي كانت تنظم بموجبه القصور والدواوين الملكية في الأستانة ، مع الفارق ، فأكثر من الحشم والخدم والمماليك وزاد في استخدامهم ثم رتبهم في درجات ونسّق أعمالهم تنسيقاً منتظماً . ولأجل ان يملأ هذا الجهاز الكبير بأناس يخلصون له ويدربهم بالتدريب الذي يريده اضطر الى استيراد المماليك من الأقوام القفقاسية بأعداد كبيرة ، واستجلابهم بالشراء وهم في حداثة سنهم ليربيهم بنفسه وينشّؤهم بالنشأة التي يريدها لهم كما كان يحصل في استانبول . ثم تبعه ابنه أحمد باشا في خطته هذه وسار على المنوال الذي كان يسير فيه أبوه . فاستطاع باخلاص هؤلاء المماليك له أن يحكم الولايات العراقية كلها بحزم وقوة خلال مدة طويلة من الزمن . ويقف في وجه نادرشاه وجيوشه في حصارات طويلة ثلاثة لعاصمته بغداد من دون ان يمكّنه من احتلالها .

وحينما ارتحل أحمد باشا الى دار البقاء لم يخلف أبناً من الأبناء ولا حفيداً من الأحفاد ، وانما خلف وراءه بنات ثلاثاً وعدداً كبيراً من المماليك الكرج في أصلهم . وقد تدربوا على العمل في مختلف وظائف الولاية المهمة وقوّاتها المسلحة ، بعد ان كان هو سيدهم وولي أمرهم وفي مقام الوالد لهم في الوقت نفسه . وكان أبرز هؤلاء وأقواهم شكيمةً كبيته ويده اليمنى ، وختنه على ابنته الكبرى عادلة خانم ، سليمان باشا الملقب بأبي ليلة . وقد استطاع « أبو ليلة » هذا ان يخلف سيده في تولي الحكم بما بذله من مال في استانبول . وما أبداه من قوة وعزم ، وبفضل المتانة والتصلب البادبين من عصبة المماليك جماعته ، بعد ان فشل اربعة آخرون من الباشوات عُينوا من الباب العالي في تولي المنصب ولم يستطيعوا الثبات فيه . وبذلك أصبح « أبو ليلة » أول والٍ من المماليك يحكم العراق . وظل المماليك الآخرون يتوارثون الملك من بعده خلال فترة تناهز الثمانين سنة من دون ان يستطيع أولياء الأمر في الباب العالي تعيين أحد من غيرهم خلال المدة كلها ، برغم المحاولات التي جرت في هذا الشأن . وهكذا تكونت منهم ما يشبه الأسرة الحاكمة التي ترسخت دعائمها ،

وغارت جذورها الى الأعماق ، في عهد سليمان باشا الكبير على الأخص . وأصبح وجود المماليك كأسرة حاكمة في بغداد ، بالاضافة الى وجود الأسر الحاكمة الأخرى في الانحاء العراقية مثل أسرة الجليليين في الموصل ، والبابانيين في السليمانية ، والصورانيين في رواندوز ، والبهدينانيين العباسيين في العمادية ، وسائر الـ « دره بيگيات » الاقطاعية في انحاء أخرى ، مما كان يميز التاريخ العراقي على عهد العثمانيين يومذاك .

وإن كان وجود الأسر الحاكمة هذه في سائر انحاء العراق يكاد يعتبر شيئاً طبيعياً بالنسبة لمقاييس تلك الأيام ، وما يقتضيه شيوع الوضع الاقطاعي في البلاد ، فان وجود المماليك الأغراب كأسرة حاكمة في ولاية بغداد ليثير الكثير من التساؤل ويدعو الى شيء غير يسير من العجب والدهشة . والحقيقة أن مجيء اناس أغراب عن البلاد على شكل عبيد يُشرون بالمال ، ومماليك مستجلبين من الخارج ، ونجاحهم في بلاد غربتهم نجاحاً يؤدي بهم الى تسنم الوظائف والمراكز المهمة في حكومة الولاية ، وتكوين أسرة حاكمة فيها تتولى حكم البلد مدة طويلة من الزمن على مرأى من سكان البلاد الأصليين ومسمع منهم ، وخلافاً لرغبة الدولة العلية وارادة السلطان المهيمن ، ليعتبر ظاهرةً غريبة من ظواهر التاريخ المليء بالعظات والعبر ، وميزةً خاصة يتميز بها التاريخ العراقي الحافل بالعجائب والغرائب . ولا بد من ان تكون لهذه الظاهرة المثيرة بالدرس والتحليل عوامل وأسباب خاصة كانت تتفاعل فيما بينها ، وتستوحي خصائص الزمن الذي وجدت فيه ، لتنتج هذا النتاج المستغرب في نظر الكثيرين . ولا شك عندي ان تكوّن هذه الظاهرة كان نتاجاً طبيعياً للحكم العثماني المستضعف في العراق ، المتصف بالكثير من الاهمال والتسيب ، المتأثر بوضع العراق الجغرافي المنطوي على بعده عن مركز السلطة الحاكمة في الأستانة ، وقربه من ايران خصيمة العثمانيين ومنافستهم في الاستحواذ على العراق الذي نام أهله عنه ، كما كان متأتياً لدرجةٍ كبيرة عن خنوع العراقيين ، ولا سيما سكان المدن منهم ، للفاتحين في تلك الظروف والأيام ، وضعف شعورهم بالمواطنة الحقة والعزة القومية . ولعل الظروف التي مروا بها في تلك الأعصر

المظلمة ، والأهوال والنكبات التي توالت عليهم خلال السنين الطويلة لم تترك لهم فرصة يفكرون فيها بمثل هذه الأمور . أضف الى ذلك ان سكان العراق كان معظمهم اناساً عشائريين ، يعيشون في عالمٍ خاص له خصائصه المعروفة المنطبعة بطابع البداوة قبل أي شيء آخر . ومع هذا لم تكن تلك العشائر تقصر في مقاومة الحكم الدخيل والثورة عليه في كل فرصة أو مناسبة . سواء أكان ذلك في الشمال ام في الجنوب . وقد كانت بعض الحركات العشائرية . من مثل حركة حمود الثامر السعدون شيخ المنتفك وحليفيه الحاج سليمان الشاوي وحمد الحمود شيخ الخزاعل في أيام سليمان الكبير متأثرةً بالروح العربية القومية والعصبية العراقية الى حدٍ كبير . وكان للثورات العشائرية المتواصلة تأثير منهك على دولة المماليك . بحيث كان من الممكن لها لو لم تكن منشغلة بقمعها على الدوام ان تتفرغ لأعمال أخرى قد تجعلها قادرةً على البقاء مدة أطول في دست الحكم . ومع ذلك فان الأمور منوطة بأوقاتها كما يقال . ولعجلة الزمن وتكوّن الأحداث ناموس خاص تسير بموجبه . ومهما كانت العشائر قوية الشكيمة شديدة المراس فانها لم تكن تستطيع بامكانياتها المحدودة ان تؤثر تأثيرات جوهرية على حكومة لها مواردها الخاصة وقواتها المسلحة .

ومما عرف عن حكم المماليك في العراق نزعة رجاله وولاته الى الاستقلال بالحكم عن الباب العالي بقدر الامكان . والمحافظة على الارتباط الاسمي بالسلطان بكل ما يتطلبه هذا الارتباط الواهي من مظاهر خارجية ومراسيم شكلية فقط . وقد كان يلازم ذلك الاستقلال بطبيعة الحال التوقف عن ارسال الأتاوى السنوية المقننة الى الخزانة الهمايونية . فكانت هذه النقطة بالذات سبباً في حصول الكثير من الأمور السياسية والأعمال العسكرية التي كان يؤدي بعضها الى نتائج مؤسفة . كما حصل في قضية سليمان باشا الصغير . على ان معظم الولاة المماليك قد نجحوا في اتباع هذه الخطة لأن الدولة العثمانية كانت تعتقد ان مجاورة العراق لايران يجعله في وضعٍ حساس دقيق يمنعها من الضغط على الحاكمين فيه بشدة . كما كانت تحاذر في أيام داود باشا من أن يؤدي الضغط عليه الى إقدامه على اقتفاء أثر محمد علي الخديوي في مصر وتحديه لها

تحدياً سافراً . والحقيقة ان خشية المسؤولين في الباب العالي هذه ، ومداراتهم للوضع في العراق على هذا الأساس ، هي التي أفضت الى ان يطول بقاء المماليك في الحكم ويمتد سلطانهم في العراق حتى تحدى أولئك المسؤولين داود باشا في النهاية تحدياً مهيناً موجعاً ، بقتل مبعوث السلطان اليه صادق افندي . وعند ذاك أصرّ السلطان محمود الثاني على تأديبه وإزالة مماليك العراق من الوجود . فكان له ما أراد بعد ان سار على رضا باشا والي حلب الى بغداد فواتاه الحظ في مهمته وحالفته الأقدار المفجعة على تنفيذ ما يريد .

ويجرنا الخوض في استقلال المماليك بالحكم في بغداد عن الباب العالي الى ذكر شيء عن ظهور شيء من بادرة الحكم المحلي في أيامهم . فقد كان ميل الولاة المماليك الى هذا الاستقلال باعثاً لفكرة تكوين دولة عراقية خاصة تحكم نفسها في معزلٍ عن الدولة العلية وسلطتها وتحتفظ بواردا تها وخيراتها في بلادها . لأن المماليك على ما يبدو باتوا يفكرون بان العراق أصبح وطنهم الثاني ، ولئن عمل كثير منهم على الاستئثار بالوظائف والمناصب فيه وحصرها بأبناء جلدتهم في الغالب ، فان بعضهم الآخر مثل سليمان باشا الصغير وسعيد باشا بن سليمان الكبير قد ذهب الى ابعد من هذا ووصل الى حد جعلت فيه حكومة بغداد حكومة عراقية لا مملوكية وصار يستفاد فيها من العناصر العراقية الأصيلة . لكن الظروف لم تسعف الواليين الشابين في اتجاهاتهما هذه ، وتطورت بهما الأحوال فلاقيا حتفهما في النهاية بطريقة مفجعة . ولعل السبب في اتجاههما العراقي هذا يعود الى نشأتهما في بغداد نفسها منذ الصغر وتأثرهما بمحيط بغداد وما فيها من عوامل ومؤثرات .

وقد كان لتدفق سيل المماليك على العراق وتمكنهم من تسلم الحكم فيه ، او التحكم بمقدراته ردحاً من الزمن ، نتائج خطيرة وتأثيرات جمة عملت على توجيه التاريخ فيه ، وطبعت طابعها البارز في الكثير من شؤونه وأحواله . وكان من أهم تلك التأثيرات شيئان : تدفق سيل من أبناء الأقوام الغريبة والفئات الطارئة على العراق والتوطن في مدنه وقراه ، وانعدام المقاييس فيه بحيث صار الكثير من نكرات هؤلاء ووضعائهم يطمعون في تولي الحكم والاستئثار به .

فقد تكونت ظروفٌ وحدثت تطورات في أوضاع العراق وأحوال مجتمعه يومذاك دفعت بالكثيرين من أبناء الفئات والقوميات الغريبة عنه الى ان تشد الرحال اليه وتعمل على التوطن فيه . فقد جيء باعداد كبيرة من أبناء العناصر القفقاسية كالجركس واللاظ والأباظة وما أشبه . نساءً ورجالاً . ليتخذوا خولاً وأزواجاً ومماليك لدى الولاة وكبار الموظفين ووجوه القوم وسراته . وليستخدموا في القوات المسلحة والوحدات العسكرية الأجيرة . وقصده الأتراك والألبان (الارناؤوط) في جملة من جاء اليه للعمل في دوائر ولاياته وأفواج قواته فطاب لقسم كبير منهم المقام وتيسرت لهم الظروف المؤاتية فتوطنوا فيه واندمجوا في طبقات سكانه . وجاء اليه الأرمن والأروام وبعض الأوربيين لأسباب تجارية ومعاشية في الغالب . فاتخذوه موطناً لهم بمرور الزمن وكوّنوا قسماً من أبنائه . وشد الرحال اليه الايرانيون والأفغان والهنود بموجات متتالية لاسباب دينية وتجارية ففضلوا الاقامة في مدنه والمجاورة في عتباته وأماكنه المقدسة . وتسربت اليه بين حين وحين زمر متتالية من الكرد والبلوش لأسباب معاشية فوجد أفرادها ضالتهم في أزقته وأسواقه . واتخذوه موطناً ثانياً لهم . وقد أضاف كل هؤلاء عناصر جديدة من السكان الى العناصر القديمة من بقايا الفتوحات والهجرات السابقة . ودخل الجميع في البوتقة الصاهرة فتكون منهم سكان العراق الحاليون . على أن عملية الهجرة العشائرية الكاسحة من الجزيرة العربية الى ربوع الرافدين وسهولها الفسيحة كانت تسير في الوقت نفسه سيرها المعتاد المعروف منذ عهد سحيق في القدم . وكانت جموع شمر وعنزة وزبيد . وربيعة وتميم وبني خالد . والموالي وطي وقشعم وكعب . والخزاعل والمنتفك وغيرها . تتقاطر على هذا الوادي الأمين . وتتدافع فيما بينها لتقتسم «الديرات» والمراعي المخصبة . حتى استقرت في أماكنها الحالية ورسمت الخارطة العشائرية التي نعرفها اليوم . بعد أن كانت وما تزال نسبة كبيرة من أبنائها تتسرب الى البلدان والمدن لتسكن فيها وتندمج بسكانها . وبذلك أصبح العنصر العربي يكوّن الأغلبية الكبيرة في البلاد . الى جانب العنصرين الكردي والتركي اللذين يتبعانه بالتتالي .

وقد أغرى نجاح المماليك في الارتقاء الى سدة الحكم والسلطة في العراق اناساً كثيرين من الواردين اليه والطارئين عليه بالعمل على تسلم السلطة . وركوب متن المغامرة لهذا الغرض . إذ انعدمت المقاييس وصار الوضيع وغير الوضيع من هؤلاء تحدثه نفسه بالوثوب على رجال الحكم في البلاد لتنحيتهم عن مكانهم والحلول في محلهم . وكثرت الاغتيالات والتكتلات المريبة هنا وهناك حول هذا الطامع او ذاك . ولذلك اضطرب حبل الأمن في كل وقت وانعدم الاستقرار في الريف والمدينة . ولم تكن تخلو كل فترة من حدوث حادث او وقوع ثورة من هذا القبيل . فوقعت حركات محمد أحمد الطويل . وعجم محمد . ومحمد أغا الكهية . وحصلت ثورة أحمد اغا ينيچري أغاسي . وحركة مدد بك . وثورة صادق بك . وما أشبه . لكن أغرب حركة ثورية من هذا القبيل . وأكثرها امتلاءً بالعظات والعبر . حركة عجم محمد ذلك المتشرد الايراني الأفاق الذي قدم مع أمه وأخواته الى البلاد وهو لا يملك شروى نقير . فاستطاع بأساليبه الدنيئة الخاصة وخدماته الخسيسة . التي صار يقدمها للمسؤولين وأصحاب النفوذ . ان يشق طريقه في المجتمع فيصبح من الشخصيات المرموقة . ويتعين مهردار ثم كهيةً في الولاية . وتحدثه نفسه بعد ذلك في تبوء منصب الوزارة . فيفرق الناس ويكتلهم ويقاتل الولاة المعينين من الاستانة طوال سنين عديدة أو يثور عليهم . الى ان تم تعيين سليمان باشا الكبير فاستطاع ملاحقته والقضاء عليه .

على ان حركات ثورية أخرى ذات طابع قومي أصيل كانت تقع بين حين وحين في الوقت نفسه . وكان رائدها تحدي الظلم والحكم الكيفي . والوقوف في وجه الولاة المتعسفين . وكان أكثرها يتصف بالطابع العشائري بلا شك . لأن العشائر يومذاك كانت القوة الوحيدة في البلاد التي يمكن ان تثور على الحكومة وتمتشق الحسام في وجهها . وأهم ما عرف من هذا القبيل ثورة الحاج سليمان بك الشاوي على سليمان باشا الكبير . وانضمامه بعد ذلك الى حمود الثامر السعدون في المنتفك وحمد الحمود شيخ الخزاعل في الديوانية . في ثورة عارمة استطاع فيها الثوار ان يستولوا على البصرة وجنوب العراق فيهددوا مركز